

عنوان الكتاب : فصول فى التاريخ الطبيعى

من مملكتى النبات والحيوان

المؤلف : د / يعقوب صروف

سنة النشر : ١٩٣١

رقم العهدة : د ٦٦٤٧

الـ ACC : ٢٤٤٣

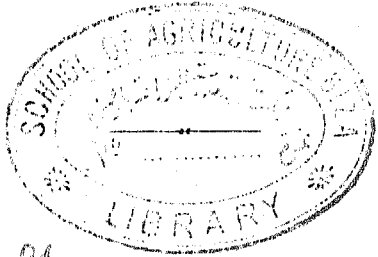
عدد الصفحات : ٣٠٨

رقم الفيلم : ١٢

٦٦٤٧ / ١٧٨ ٥

فصول في التاريخ الطبيعي

من مكتبة النبات والحيوان



٥٠٠٩

بقلم

الدكتور يعقوب صروف

١٠

٦٦٤٧

هدية المصطفى السنوية

١٩٣١



مقدمة

أُ كتاباً بقلم الركنور صروف ؟

للآنسة « مي »

إنّ ذلك القلم الذي قصفتُه يد الردي لخالِد في تاجِه الموفور ، والدروس المجموعة بين
دفتي هذا الكتاب الجديدة بأن تُحسب اليوم جديدة
يحدثنا هذا الكتاب حديثاً علمياً وضعياً استقرائياً على نسق مشوقٍ كنسق الروايات ،
مفيدٍ لأنّه عديد المعلومات ، خاتميّ لأنّه يشجّدُ الهمم ، نبيلٌ لأنّه يرفع المدارك ويمضي بها
إلى أبعادٍ يلمس الانسان عندها الصلة التي تربطُ بجميع الخلائق فيدرك أنّ الحياة النابضة فيه
هي هي نفسها التي تنبض في قطرة الماء ، في الغرسة الضئيلة ، في الزهرة المنسية ، في نسمة الهواء ،
في نطفة النار ، في الحيوان الأعجم ، في الجبل الصامت ، في مدّ البحار وجزرها ، في ذرّة الأثير ،
في العوالم والمنظومات الشمسية والسدم المنتورة ، في ما يرى من الافلاك وفي ما لا يرى
حديث جذاب يستوقف الانتباه ويستولي على الفكر كشكل موضوع ذي علاقة مباشرة
بالإنسان لأنّه حديث عن الطبيعة : تلك القوة الباهظة الرهيبة التي تهدم ابدأً وتبني وتبني وتهدم
بحركة واحدة متشكلة بألف ألف شكل ، متكوّنة بألف ألف صورة ، مبتدعة من نفسها ولنفسها
ما لا يحصى ولا يحصر من الأصوات والألوان والحركات والنظم والكيفيات والنزعات والاشواق .
تلك القوة المستأثرة الجيّارة التي نصفها تارة بالرفق والجود والحير ، وطوراً بالجور والبخل

والشر لا تانا نحسبنا النقطة المركزية منها ونزعم انها لم تخلق إلا لمصلحتنا وخدمتنا . ولكننا نحن الذين نتسم مشيئتها وتنفذ أغراضها وشأنا في ذلك شأن سائر المخلوقات ...

حديث عنا نحن بني الانسان لانه يخدمنا عن الحيوانات والنباتات لإخوتنا في الطبيعة وفي الحياة وشركائنا في محاولة رفع وطأة الأقدار للتغلب على قيود الجبرية والانطلاق إلى فضاء الحرية . ولقد ألفنا في الحيوان الحركة والانتقال والسعي من غير انتباه إلى ما ينفقه من ذكاء وشجاعة وإقدام لمكافئة ما يعترضه في سبيله من مقاومة وحاجز . على أننا مهما اتسع خيالنا ومهما دقق نظرنا في التعرف إلى أحكام القدرية والجبرية فإنا لا نجد بين النواميس الكبرى التي ترهقنا ناموساً أظلم من ذلك الذي يقضي على الغرسة بالعبودية ويحكم عليها بالجمود في مكانها من ساعة الولادة إلى ساعة الاندثار

إن عالم النبات الذي قد يبدو للكثيرين مثال الوداعة والرضا والقناعة والامتثال لهو ، على النقيض ، عالم تصطبغ فيه عوامل العصيان والثورة على القدر في أقسى مظاهره المتمثلة في العضو الجوهري الذي يمد الغرسة بالغذاء في حين هو يقيدها بالأرض من غير ما أمل بالانفتاح . . . وتتمرد الغرسة الصغيرة على هذا القدر في بادئ الامر . وحرارة اشواقها وقوة زعاتها المتصاعدة من ظلمات جذورها لتنظم أوراقاً ، وتنفج أزهاراً ، وتنضج ثماراً — هي مشهد فريد لا يضاهى . فهي بكليتها تصبو إلى التفلسف في أعاليها من القدر العصي المستحكم في أصولها ، وإلى تحطيم قيد ذلك النظام الجائر للانطلاق بعدئذ من المجال الذي بأسرها مستعيرة من الهواء جناحاً ينقلها إلى أبعاد مدى ممكن ، حيث تنعم في فضاء جديد وتشارك في حياته ووجود آخر . . . وليس في هذا شيء من الوصف الشعري الخيالي بل في الفصول التالية ما يثبت بالدليل العلمي المحقق

قد يقضى عليها في طريقها ، وقد تفوز بغايتها وهي كثيراً ما تفوز . وعلى كل فإن تلك النبتة الصغيرة تقدم أبداع مثال من عدم الرضى بالواقع وعدم الركون إلى أحكام القدر ، ومن الذكاء والنشاط وبراعة الابتكار وركوب الاخطار والقادة رغبة في تحسين نوعها وإنالة ذرايعها حظاً خيراً من حظها

أنى أدركنا البصر في جوانب الحقيقة وجدنا ان النظام الأعظم المسيطر على حياة الجماد والنبات والحيوان هو نظام العمل والنشاط ، وجدنا ان فكرة العالم في الوقاية والجمال والتمتع والحبور والانتقال من مرتبة إلى مرتبة وقهر المسافة والتغلب على القدر — شديدة الشبه بفكرة الانسان في كل أوائله . بل ليس هناك ما يثبت ان الانسان ابتكر شيئاً من تلقاء نفسه ومن وحي خياله الخاص . وإنما جميع ما لديه من الأنماط الهندسية والبنائية والفنية والموسيقية ، وكل ما يسميه اختراعات ميكانيكية وكهربائية وغيرها بما فيها فن الطيران — كلها مستعارة من الطبيعة

وقد سبقه إلى اصطفاها والانتفاع بها الحيوان والنبات . وبعض الصفات التي تكبرها وتمجدها في الإبطال من بني الانسان نراها أحياناً في أروع مظاهرها في الحيوان المجهول وفي النبتة التي لا تختلف عن صاحبها في شيء ...

جميع فصول هذا الكتاب تحدثنا عن قدرة الطبيعة وسليقة الحياة ونباهة الحيوان والنبات وذكاءهما . ولكن بينا هي تبسط تلك الحقائق العلمية الشائقة إذا بها تلفتنا إلى الفرق الجوهري بين النوع الانساني والانواع الأخرى . فنقول ان الحيوان ، مثلاً ، « يتألف ويتعاون ويحارب بمضه بعضاً وبين المنازل ويشيد الجدران ويحفر الاسراب ويعصم لها ابواباً ومزاليج ويحب ويبغض وينتقم ويعاقب ويشيب ويرضى ويدخر للغد ويقيم القواد والقضاة إلى غير ذلك من الاخلاق العقلية والادبية والاجتماعية على ما تراه مبسوطاً في هذا الكتاب . فإذا أنكرنا النطق على الحيوان لا نكون أنكرنا عليه صفة أسمى من هذه الصفات ، وإذا اثبتناه لا نكون قرّبناه من نوع الانسان . بل يبقى الفصل بين الانسان والعجاوات بالنفس الخالدة صفة مميزة لنوع الانسان » (ص ١٢٠ — ١٢١)

... « النفس الخالدة » . . . ان الدكتور صرّوف ، الفيلسوف الوضعي والعالم الطبيعي ، كان يعتقد بوجودها ، وفي هذا امثولة للذين يرون الايمان ملازماً للجبال دون العلماء . وكان يؤمن بالمبادئ الاخلاقية مبادئ الحق والعدل والصدق والاستقامة والرحمة والحب التي ، رغم ما يطفو على العالم من ظلمات الشر ، ما فتئت تهز النفوس بأسمى العواطف وما زالت الجماهير تؤيدها وتشدها ولو سارت تلك الجماهير بأعمالها الفردية على ما يناقضها . كان يؤمن بالجمال الاخلاقي وبروح الحرية التي لا ترتب على نظام بل هي ميزة نفسية داخلية تدفع بالانسان الى الاعمال العظيمة والتضحيات الجسيمة في سبيل تحقيق مثل أعلى يختلف عن غايات الطبيعة في حماها ونباتها وحيوانها . لان الطبيعة التي اوجدت في كل نوع من الانواع الغرائز المتوافقة وطبيعته ، الضرورية للقيام بنصيبه من مشيئة الحياة فيه ، قد اوجدت كذلك في النوع الانساني مبدأ خلقياً سامياً ومثلاً أعلى لا يقفأ ينشده سعيداً كان او شقيماً . النوع الانساني وحده خص بالمثل الاعلى ، وفي تطله يتلمس الغايات السرية الغامضة الكامنة في قلب الوجود وينزع الى الاتصال بالالوهية الشاملة المهيمنة على هذا الكون العظيم

وفي هذه الفصول مثال جميل من اسلوب الدكتور صرّوف في التفكير والكتابة ، ذلك الاسلوب المعروف بالسهل الممتنع الذي لا تستطيع ان تزيد عليه كلمة او تحذف منه كلمة ، لان كل لفظة راسخة الوضع ، محكمة الدلالة ، وكل جملة انيقة في بساطة ، بليغة في جلاء ، طليقة في وضوح ، مشبعة في إيجاز . ففي كل هذا طراز لطالبي التجديد في الانشاء . ولو نحن ذكرنا ان بعض هذه الفصول كتب قبل نصف قرن يوم كان البيان العربي زركشة في اللفظ وسجماً

وتوريةً وبديعاً وأغراقاً — لتجلى لنا جانب من مواهب ذلك الفقيه العظيم فأبصرنا خياله الرصين المهيب يتهادى بين هذه الصفحات إن خياله ليهادى بين هذه الصفحات . وإذا كانت الروح الخالدة ، التي كان يعتقد بوجودها، تشارك في شؤون عالمنا هذا ولو بعض الاشتراك ، فإن روح الدكتور صروف لتتظر إلى هذه المجموعة فتبتسم ابتسامة الرضى وتشارك مع القراء في الثناء على جامع هذه الفصول ومنسجمها وناشرها ، خليفة الدكتور في مكانه العلمية وولده بالفكر والروح الذي احتفظ بحياة «المفتطف» ونهض به هذا النهوض الذي نشهد . ان صروف الفتي ورث عن عمه العظيم شتى المواهب العلمية والخلقية والفكرية كما ورث عنه مميزات الكفاية وخصائص انشائه وبيانه . ويسرني ان أذيع سرا (إن صحّت تسمية هذا بالسرا) وهو ان فئة من هذه الفصول كتبت بقلم الاستاذ فؤاد صروف . فأدعو القارئ إلى الانتباه إلى تلك الفصول والمقابلة بينها وبين الفصول الأخرى إذ ان ير أن التمييز بينها متعذر^(١)

ولقد أحسن الاستاذ فؤاد صروف بنشر هذا الكتاب في حين اللجنة المحترمة تحاول القيام بواجبها في نصب شمال صروف الكبير في الجامعة الأمريكية ببيروت حيث تلقى دروسه . ونحن حيال فكرة هذا التمثال المتحققة في الغد وحيال الخيال الخالد المتهادي بين هذه الصفحات نصمت طويلاً وتنتجني في خشوع وإعجاب وشكران « مي »

(١) الفصول المكتوبة بقلم الاستاذ فؤاد صروف هي : المادن في غذاء النباتات ص ٤٢ (٢) هل النبات احساس نأبض ص ٥٢ (٣) الاحياء المنيرة ص ١٩٢ (٤) الرطاد او السمك الكهربائي (الجانب الاخير من المقالة) ص ١٩٨ (٥) طير القبتارة ص ٢٤٣

لغة الطبيعة

وارها في تقويم الخلق الانساني

تصدير للاستاذ اسماعيل مظهر

سلطان الطبيعة على الانسان

للطبيعة على الانسان سلطان غير محدود المدى ، ولا مقصور على ناحية خاصة من النواحي التي تشعب فيها النفس الانسانية . يكفي لان تعتقد بهذا ان تذكر ان الانسان جزء من الارض ، وأنه من صميم ثراها نشأ وترعرع ، ومن خيراتها عاش وتكاثر ، ومن هوائها اتمش ، ومن انهارها اغتذى ، ومن احجارها شيد ، ومن اشجارها تجدد ، وفي حزنونها ووهادها وتلاها وجبالها ضرب كل مضرب وسار كل مسار ، ومن مشارفها غذى النفس ، ومن مناظرها زود الخيال ، ومن حقائقها كون العقل . سلطان موروث بالطبع ، لا مكتسب بالمران ، سلطان لا تبالغ اذا قلت أنه قطعة من الفطرة ، وجزء من الحيلة ، تتراءى للطفل لمخايله منذ ان يفتح عينيه لأول مرة على نور هذه الدنيا ، ولا تفارق الانسان خيالاته الا عند ما يفض عينيه الغمضة الاخيرة ، ويخيم الموت على هيكله الترابي

على أن اهل العلم يحاولون اليوم أن يكسروا من حدة ذلك السلطان ، سلطان الطبيعة على ابنها الناثر . فيقولون بان الانسان استقوى على الطبيعة وأخضعها ، وأنه ذلّلها وألجمها ، ثم امتطها . والحقيقة ان الانسان كلما ازداد استقواؤه على الطبيعة وأخضعها ، وأنه ذلّلها وألجمها ، ثم امتطها . في نواح اخرى . فاذا كان الانسان قد حبس تيار الكهرباء في سلك محصور في زجاجة مفرغة من الهواء فتوهج ، واذا كان قد امتطى الريح بالآلات داخلية الاحتراق تدير محركات تضرب الهواء فترفع فيه جسماً أثقل منه ، واذا كان قد اسر البخار فثنى به فوق الارض وعلى متن البحار سالكاً سبيلاً ذليلاً ، فان كل هذا وما يجري مجراه من المستكشفات التي استخدم فيها الانسان قوى الطبيعة ، انما تصبح للانسان اسراً جديداً بالتقليد والصفات المكتسبة والعادة التي تصبح على مر الاحيال فطرة . فخذ لذلك مثلاً حركة الانتقال من مكان الى مكان . فان الانسان ظلّ قروناً ودهوراً ينتقل من مكان الى آخر مشياً على رجليه ، فلما ألف الحيوان اتخذ منه متوناً يسافر عليها ، وظهوراً ينقل عليها متاعه وزاده . فانتقل بذلك من حال اجتماعية الى اخرى . ثم استخدم

العربات ثم البخار ثم الكهرباء . وكان في كل مدرج من هذه المداخل مدفوعاً الى التطبع بما نال من انتصار على الطبيعة والتعود على حالات جديدة ، حتى اصبح اسيراً لهذه العادات بل عبداً لمخترعات عقله ، ومستنبطات ادراكه ، ومستحدثات تصووره ، فانتقل بتطور الحالات الاجتماعية من حال الى اخرى يستحيل عليه في الوقت الحاضر ان يرتد عنها أو يرجع بها الى الحالات الاولى التي درج عليها اسلافه الدهور الطوال . ومع هذا يقولون ان الانسان استوى على الطبيعة ، ولكن الحقيقة انه استخدمها فأسترته ، وعبدها فأذلته ، وذلكها فصفدته ، وخلقت منه خلقاً جديداً له عاداته التي لم يدرج عليها آباؤه الاولون ، وزعت به منازع حديثة أحاطته بكثير من القبود الاجتماعية والحيوية ، كان أوائله محرّرون منها ، وعلى قدر ما كان جهلهم بالطبيعة واسرارها ، كانت حالاتهم الاجتماعية ، فكانوا ادنى من الفطرة واقرب لمطالب الحياة الحرة على معناها الاوسع

ثم خذ مثلاً آخر . فان الانقلاب الصناعي ، الذي مني به العالم الحديث ، اذ خرج الانتاج من يد الصانع الى دوي الآلات الميكانيكية قد احدث حالة يدعوها البعض تنلياً على الطبيعة واعنائاً لها واتسوداً عليها . ذلك في حين أن الآلات افقدت الانسان مهارته الطبيعية ونزلت به من سماء الفن الى اسر الآلات الداوية ليل نهار ، حتى لقد اصبح لها عبداً رقيقاً بل يخيل اليك كما نظرت آلة يخدمها انسان ، ان الانسان قد انقلب آلة ميكانيكية وان ارادته فتت في ارادة الآلة التي يلاحظها ، فكانه انقلب آلة وانقلبت الآلة انساناً

وكذلك الحال اذا تأملت في الامر من الناحية العقلية الصرفة . فلقد تحرر آباؤنا الاولون من كل شيء في الطبيعة الا حاجات الحياة الاولية من مأكل ومشرب وماوى واخلاف النسل . ثم تصوّر بضعة ارواح تحرك ما حولهم من كائنات . فلم يكن لهم من غرض الا الحياة على صورتها الطبيعية الصرفة ، والا تميل الظاهرات بخضوعها لارواح او لقوات مما وراء الطبيعة ، تحتكم في كل ما ترى حفافيك من مظاهر الوجود . لم ير الانسان الاول في الطبيعة وجهاً للشكوى الا اذا تعارضت اعاصيرها مع حاجات حياته . اما الآن فان يوماً غامماً او شديد الرياح ، كقيل بان يشغل مئات من مكاتب المحامين ، وبضع عشرات من القضاة في دور العدل . او كساد في السلع او نقص في الثمرات ، فانه زعيم بان ينتج ثورات طاحنة او قورات مهلكة ، أو حروب تأكل الاخضر واليابس . أو زيادة في رطوبة الجو تؤثر في الاعصاب تأثيراً من شأنه ان يرسل الكثيرين الى محاكم الجنائيات ، وبالقليل منهم الى حبال المشانق . كل هذا نتيجة لاتساع افق التصور واستنباط العقل لكثير من خفايا الطبيعة مع عدم التساوي بين الناس في المعرفة . فان الفارق بين الذي يدرك أن الحجر بها نجوم تبعث عن ارضنا ملايين السنين النورية ، وبين الفلاح الذي قال لي مرة في يوم صائف ان الشمس لا بد من ان تكون اقرب الى الارض في القاهرة

منها في شمال الدلتا ، كبير ، اذا اعتبرت الحالات الاجتماعية التي تلبس الانسان في عصره الحاضر . فان الاول يدرك من المدنية أنها نظام موروث تشابكت حلقاته الى درجة التعقيد ، في حين ان الثاني لا يدرك من هذا النظام الا انه نظام خلق مع الارض مذدات لاول مرة في فلكتها المرسوم . والفوارق التي تباعد بين طبقات المجتمع نخلق حالات يصبح فيها الانسان عبداً للطبيعة ولنظام الاجتماع الخاضع في كل الحالات لعوامل طبيعية يخرج عن طوق الانسان ان يحتكم فيها او بصرفها في الناحية التي يراها خيراً

لغة الطبيعة

لهذا ترى ان من اكبر الاصفاد التي قوّضت بها الطبيعة حرية الانسان ، تطور عقليته من ناحية ، وتطور نظمه الاجتماعية من ناحية اخرى . فان تطور عقليته نزع به الى حب الجمال ، وتطور نظمه الاجتماعية اوقعه فيما يدعوه الاستاذ لير الالمانى بالجشع الاجتماعى ، تلك الصفة التي اخضعت كل الفضائل الانسانية لرذيلة واحدة ، هي رذيلة الاستجماع وحب الحطام حتى اصبح المجتمع الانساني اشبه بنظام بدائي تنازعت فيه الميول والشهوات ، بدل ان تنازع فيه الحاجات الاولية . ولقد يخيل اليك ان معركة التناحر على البقاء التي تقوم بين الاحياء في الطبيعة عفواً وبحكم الضرورات الحيوية وعلى صورة مجازية صرفة ، قد دارت في عالم الاجتماع الانساني خاضعة لقواسر لا ضرورة لها في الحياة ولا حاجة للانسان بها في نظام اكثر من نظامنا الحاضر تمشياً مع المعقول ومع الضرورة . وما السبب في هذا الا ان سواد الناس يجهل لغة الطبيعة او ان الناس جرياً وراء شهواتهم قد وضعوا للطبيعة اسلوباً غير اسلوبها وبلاغة غير بلاغتها ، على قدر ما يرضى في انفسهم شهوة الهالك على الحطام واستجماع ما هم في غير حاجة اليه

لهذا ترى ان المجتمع الانساني اصبح شبيهاً بسجن حيث شبكته من اوهام دنيوية ، خلقها ما يدعوه البعض تسوداً على الطبيعة واسراً لقواتها . على ان تسود الانسان على الطبيعة هو أحد تلك الاوهام التي تحاك منها شبكة السجن الدنيوي . ولو فقه الناس ان للطبيعة لغة يمكن ان تخاطبهم بها في صمت ، او لو انهم عرفوا ان الطبيعة لا تؤسر حتى تأسر ، إنها لا تستعبد حتى تستعبد ، وأنها لا تخضع حتى تخضع ، لا يمكن ان يكون للدعوة التي دعى اليها فلاسفة من اصحاب كبار العقول على مدى الايام الحالية ، بعض الاثري صرف الناس الى متجه آخر اقرب الى مطالب الحياة لتكون الحياة اقرب الى الحرية ، وادنى الى الجمال الذي تصبو اليه النفس الانسانية كما ضرب الانسان في مجاهل الطبيعة

يخيل الى الذين لم يقرأوا لغة الطبيعة على حقيقتها ان هذا النظام الاجتماعي القائم من حولهم بما فيه من معاهد ونظامات وجيوش وحكومات وسلطات قضائية وتشريعية وادارية ، وبما فيه

من منازع ومظاهر وقواسم ، قد خلق مع الطبيعة منذ أن برزت في عالم الوجود على ما هي عليه اليوم . اما لو فقهوا لغة الطبيعة اذن لعرفوا ان هذا النظام خاضع لما ندعوه « ارادة المجتمع الانساني » وتكوّن من مجموع الظروف التي احاطت بالجماعات الانسانية منذ اول ظهورها على سطح هذا السيار في جماعات منظمة ، ومن مجموع المنازع والمشاعر والحيا ، ومن مجموع الانتصارات والهزائم والوان الحب والكراهية ، وفورات الانفعال والشهوة ، واطوار الحرب والسلام ، ومظاهر الاقدام والاحجام ، وعلى الجملة يحمل ما شعرت به نفوس اولاد آدم وما احاط بهم من عوامل منذ ابدء العصور . وان هذا النظام الاجتماعي يحوي من مختلف العصور ما هو اثر من آثار ما احاط بالشعوب من فعل البيئة والنشأة والوراثة والاستيطان وطبيعة الاقليم وتخطيط الارض الى غير ذلك من المؤثرات التي توحى اليك بها الطبيعة في لغة مفهومة سهلة بعيدة عن ان تكون كتابية او مجازاً ، خالية من المحسنات اللغوية ، بعيدة عن الخطايات التي تستعين بصور البلاغة ، موجزة لا اطباب فيها ، معجزة لا مؤول لها

والذين يعجزون عن فهم لغة الطبيعة يظنون ان الانسان خلق وحده ، وأنه لا يمت الى الطبيعة بسبب وأنه سيدها وإنه محور الكون وسيد الخلق ، الى آخر ما هنالك من مهزلة الخيال الانساني . فاذا فهموا لغة الطبيعة أدركوا ان الانسان احدى هبات الطبيعة لعالم الحياة ، اخرجته بالنشوء من جوفها العميق انسلالاً على مدى الدهور ، كما ينسل الليل من النهار ، ولكن في فترة مداها ملايين السنين وعلى غير استشعار بما جمعت فيه من وراثات وما حبت به جماعته المتفوقة في الحياة من حظوة الانتصار في معامع التناحر على البقاء ، وبما بعثت فيه هذه المعارك المتطاولة من شعور بالحاجة الى التعاون الذي كوّن هذا المجتمع الانساني ، بما فيه من مختلف الصور ، وبما يحوي من ضروب المعاهد والنظامات

وتوحى اليك لغة الطبيعة بان الارض سيار يدور حول الشمس ، انه ثالث السيارات بعداً عنها وان فلنك على هذه النسبة من الشمس كان ملائماً لظهور الحياة في صورة حية اخذت تتلوّر على مدى الايام الطوال فكانت حيوانات رخوة ثم اسماكاً ثم زواحف ثم طيوراً ثم ثدييات برز من خلالها الانسان متربحاً على عرش قسم منها ندعوه الرئيسيات . وان الارض كتلة مشتعلة انفصلت من الشمس مذ كانت سديماً بفعل جذب شديد سببه نجم ضال اقرب من ذلك السديم فامتد منه ذراع الى خارج فلنك ابعد السيارات المعروفة ، ومن ثم اخذ يدور حول اصله في كرات تكاثفت ، فكان منها جبابرة من امثال المشتري وزحل ، واقرام من امثال عطارد والزهرة والارض والمريخ ثم توحى اليك بان القشرة المتجمدة من الارض قد تناوبت عليها ادوار وتناوحت من حولها اعاصير كانت مياه الامطار وثورات البراكين وهزات الزلازل وطغيان المياه انهاراً وبحوراً ، بعض عواملها التي جعلت الارض على ما هي عليه الآن

ثم توحى اليك بان ظهور الاحياء على الارض وانتشارها فوقها قد خضع لمؤثرات ندعوها مؤثرات الاستيطان وزعت الاحياء على الارض توزيعاً جغرافياً راجعاً الى حكم الضرورات والمقتضيات التي احتكمت في كل ما برز في الوجود من صور الوجود

وبهذه اللغة السهلة الموجزة يتحدثك الطبيعة اذا نظرت الى السماء تستوحى شمسها واقارها وسياراتها ، او اذا تطلعت الى الارض تستوحى تاريخها العجيب الذي يرجع بك لا الى مدنات اليونان والرومان ، ولا الى مدنات مصر وبابل واشور والهند والصين ، بل الى ملايين السنين ، حتى ليخيل اليك وانت تستوحى ذلك التاريخ ، انك تستوحى الابد او اللانهاية والطبيعة في لغتها لا تنكر عليك الدليل ولا تلجأ الى مغالطتك ببرهان منطقي . بل دليلها في يدها وبرهانها في آثارها . دليل قائم وبرهان ناهض . ولذلك كانت لغتها اسهل اللغات على من يدرك كيف يقرؤها ، واشدها استعصاءً على من يجهلها ، وبرهانها قريب لمن يستطيع ان يستخلصه من طياتها ، خفي على من يقف العجز به بعيداً عن استخلاصه

كيف نتعلم لغة الطبيعة

لهذا كان جهل الناس بهذه اللغة السهلة الموجزة ، وعجزهم عن ادراك بلاغتها التي تتضاءل بجانبها بلاغة الاوضاع الانسانية ، سبباً في أن يصاب المجتمع الانساني بجمود العقل وانحطاط الروح الى درجة صورنا لك فيما قدمنا من الكلام صورة ضئيلة منها . ولكن كيف يمكن ان تعلم لغة الطبيعة ، وكيف نمود الناس على ان يقرؤوها سهلة مدللة ، بعيدة عن مكابرات الجدل والسفسطة ، قضية عن أن نحتكم فيها الاوضاع الانسانية ؟ كيف نفرّب الناس من الطبيعة ، حتى يعرفوا ان الحياة ليست مجرد تكالب على الحطام ، ولا تهالك على الاستيحاء ، وان شر ما تبلى به الجماعات رذيلة الجشع الاجتماعي ، التي خلقها مجتمع بعد عن الطبيعة وجعل لغتها وعجز عن استقراء اسرارها ، وقعدت به تخايل الوهم الدنيوي عن الاقتان ببلاغتها ؟ لا سبيل الى هذا الا بأن نجتمع لهم الطبيعة في دار ندعوها « متحف التاريخ الطبيعي » نسلسل لهم فيها تاريخ الكون على ما استطاع العلم حتى اليوم ان يدرك من اسرار العميقة

ياخذ الفنان في يده قطعة من الصلصال لا صورة لها ولا شكل ، ولا انطبق لهيكلها على صورة من الصور الهندسية المنظمة ، فيضغطها من ناحية ويبيجها من ناحية اخرى ، ثم يمضي في تصويرها رويداً رويداً ، واذا بك ترى امامك تمثالاً رائعاً اجالاً يمثل ناحية من نواحي الحياة او لوناً من ألوانها او عاطفة نابضة او حباً كامناً او املاً او بغضاً او حزناً او تأملاً او غير

ذلك من الصور التي تستحيل اليها ملاح الأحياء وتعب عنها تقاسيمهم. ويسك المصور ريشته وأمامه لوحة بيضاء يخط عليها خطوطاً تحسبها لأول أمرها عبث أطفال أو تخطيط لام يقطع الوقت ضجراً من الوقت. ثم لا تلبث أن ترى اللوحة وقد استعالت ريشته منظرًا طبيعيًا أخاذًا بالالباب أو وجهًا تجري فيه الحياة كما تجري في الأحياء، وقد برز لك من ثنايا الريشة والحضاب، ليعت في نفسك باعثًا بعينه ويكون امام ناظريك حالة تامة من حالات الحياة دفعة واحدة. وما ان تغالط نفسك أو تحملها على الانصراف عن ان تستحيل الى الصورة التي تعبر عنها الصورة، الا وانت مجاهد في سبيل التخلص من اثر المصور في صورته جهاداً لا تخرج منه الا مهزوماً، ولا تفارقه الا وقد ثبتت في نفسك صورة لا تتغير، لان نفسك استحال اليها فدمتها بطابع لا يزول ولا يتحوّل. ويجلس الشاعر منصرفاً الى تأملاته منحدراً تارة الى حضيض اليأس، طافياً اخرى الى مسابح الامل ومسارح الحياة الانسانية، يجمع من هنا فكرة ومن هناك خيالاً، ويترد ذكريات تؤلمه ليستلمهم اخريات ترضيه، حتى اذا تحركت في كيانه الشعاعية وانسجمت في نفسه المعاني فاستبان السبيل، تدفق منه الشعر عقوداً منظومة وخيالاً مجسماً أو طبيعة ناطقة بما تحس النفس الانسانية من مختلف صور الحياة التي تحياها. وعلى هذه الوتيرة يجب ان يجري العالم الطبيعي. فانه يجب عليه ان يجمع بين العلم والفن والخيال، ليخرج للناس من الطبيعة صورة تعبر عن الماضي اقوم تمييز، وليخلق من مجموع العلم والفن والخيال لغة للطبيعة يفهمها العالم ويدرك معناها المتعلم وطالب المعرفة. يجب عليه ان يقيم الطبيعة داراً تحيي بين جدرانها صورة تعبر لنا عن لغة الطبيعة الصامتة، تلك اللغة التي هي اشبه بلغة الفنان والمصور مهوكة في العيان، في حين انها كلفة الشاعر خفية في المعنى. يجب عليه ان يجمع الاحجار والآثار المستحجرة من اسنان وجماجم واقدام وسلاسل فقارية وفكوك واصلاب واعجاز وزعاقف وتروس الى غير ذلك، ثم يعمل في مجموع هذه عصى العلم لا عصى السحر، فتخرج منها ضباب هائلة وفيلة مائلة واسماك تقطن الماء بيوضة وولودة، وبرمائيات استحوزت بسطانها على البر والماء، مقدمات وغير مقدمات، وطيور لها من صفات الزواحف القديمة اكثر مما لها من صفات الطيور في هذا الزمان، وذوات ثدي موحدة الخارج، ثم قوارض ثم سباع ثم ميامين ثم قرود علياً تمت الى الانسان او يمت اليها الانسان بأكثر الاسباب. ناهيك بعالم الحشرات ما انقرض منه وما بقي، ثم بعالم النبات ما علم منه وما خفي، ثم بأحياء الزمان الحاضر وضرورها وانواعها واجناسها وفضائلها ومراتبها وقبلها ثم ممالكها وعوالمها. وهناك ترى ان عصا العلم قد استقوت على عصا السحر، اذ تعرض عليك تاريخ الكون من السديم والحواء، الى المادة والنظام، ومن الخلية الحية الى الانسان، وتطوف بك في ساعات، على ما كدّت الطبيعة في ابرازه الى عالم الوجود الملايين ثم الملايين من السنين

هزا الكتاب

اما اليوم فنكتفي من « دار الطبيعة » بفصول يقدمها المقتطف الى قرائه هدية تصور لهم احسن تصور بعضاً ما تكنه الطبيعة من الاسرار. وهي فصول تدبجتها براعة استاذنا الكبير المرحوم الدكتور يعقوب صروف، تاثرت كالدراري في اجزاء مختلفة من مجموعة المقتطف، بل من تلك الموسوعة الكبرى، التي لا ينقصها الا التصنيف لتكون موسوعة هي اقرب الموسوعات العربية الى الكمال. وقد رتب الكتاب احسن ترتيب وبتب امثل تبويب فبدأ فيه بفرائب النبات ومنه تعرف ان — « غرائب الازهار اكثر من غرائب الاوراق والاعصان وابدع » ويضرب لك المثل « بوردة ظهر فيها غصن فيه اوراق ووردة اخرى » ثم يبتك بأن — « اكثر غرائب الازهار في المكبس منها اي الذي استحال اسديته ومدته الى اوراق كما في الورد غير النسرين والقرنفل والزنبق المكبس والمنتور المكبس وهلم جرا. فان الاوراق تحاول التلب على الاسدية والاسدية تحاول البقاء فتظهر على جانب الورقة او على رأسها او نحو ذلك مما يطول شرحه. والاوراق التي اصلها اسدية لا تتخذ شكلاً واحداً بل اشكالا مختلفة كمن اضاع اصله وخلع العذار، فيتستر كل ساعة بستار» (ص ٢). ثم تقرأ في « حيل النبات » فصلاً من امتع الفصول. وحسبك ان تعرف منه ان — « الطرق التي يعتمد النبات اليها للمحافظة على نفسه كثيرة منها ان بعضه يثبت بين العواصج والاشواك لكي لا تمتد اليه يد انسان مغتال ولا فم حيوان جائع. ومنها ان بعض انواعه ينزع عنه اوراقه متى انتهى زمن نموه يتخذ شكلاً مخصوصاً ويبقى مدفوناً تحت الارض لاسيا حيث يشتد القيظ صيفاً والبرد شتاءً » (ص ١٧)

ثم تستروح باباً آخر في « بعض النباتات وطبائنها ». وحسبنا ان نوجه نظر القارى الى فصل عقد في النارجيل او جوز الهند وقد قيل فيه إن « النارجيل من اكثر الاشجار نفعاً للانسان ان لم يكن انفعها كلها حتى قال المثل الصيني ان منافقه بقدر ايام السنة عدداً ». وقال سكان جزائر البحر ان الذي يزرع نارجيلة يستغل منها الحما ولبناً وبيناً وثوباً واناةً وخيراً داعاً له ولاولاده من بعده. فان الجوز نفسه طعام كاف لالوف والوف من البشر لا يقتاتون بغيره. ولبنه شراب لهم والشجرة نفسها تمتص المياه من ارضهم ولولاها لصارت سباخاً وبطائح كثيرة الحميات والامراض الاجمية» (ص ٣١) ثم تقع في وسط الطبيعة الزاخرة بما الف الكتاب من نواحيها على أدب جم وموعظة حسنة ففي فصل في « الحشيش وفعله » تقع على ما نقل عن المقرزي — انه كان شيخ للفقراء اسمه حيدر كثير الرياضة قليل الطعام نشأ بخراسان واتخذ زاوية باحد جبالها ومعه جماعة من الفقراء واقام اكثر من عشر سنين لا يدخل عليه الا رجل واحد منهم. ثم خرج الى البرية في يوم شديد الحر وعاد وقد علا وجهه نشاط وسرور لم يعهد فيه قبلاً فاذن لاصحابه بالدخول عليه وجعل يحادثهم فسألوه عن هذا الحال الذي صار اليه فقال بينا انا في خلوتي اذ خطر ببالي الخروج

الى الصحراء فخرجت فوجدت كل شيء من النبات ساكناً لا يتحرك لعدم الريح وشدة القبط ومررت بنبات مورق فرأيتُه يميل بلطف ويتحرك كالثلج النشوان ، فجعلت أقطف منه أوراقاً وآكلها ، فحدث عندي من الارتياح ما ترون فهاموا بنا حتى اريكتم إياه فخرجوا ورأوه وقالوا له هذا هو القنب ثم قطفوا من أوراقه واكلوا فحصل عندهم من السرور ما يحجزوا عن كتابته ، ثم يقول — وشاع امر الحشيشة في بلاد خراسان وقارس . ولم يكن اهل العراق يعرفون سرها حتى ورد اليها صاحب مزرع وصاحب البحرين وهما من ملوك سيف البحر المجاور لبلاد قارس سنة ٦٢٨ ، فحملها اصحابهما معهم فاشتهرت في العراق ووصل خبرها الى الشام ومصر وفي نسبتها الى الشيخ حيدر يقول محمد ابن الاعمى الدمشقي :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر معتبرة خضراء مثل الزرجد
الى ان يقول: وفيها معانٍ ليس في الخمر مثاها فلا تستمع فيها مقال مفند
ولا نص في تحريمها عند مالك ولا حذراً عند الشافعي واحمد
ولا اثبت الثعالب تنجيس عينها فخذها بحمد المشرق في المهند
وكف أكف الهمم بالكف واسترح ولا تطرح يوم السرور الى غد
وقد نسب اظهارها الى اهل الهند علي ابن الشاعر بقوله

ألا فكفكف الاحزان عنا مع الضرر بعذراء زفت في ملاحفها الخضر
تجبت لنا لما تجلت بسندس تجلت عن التشبيه في النظم والنثر
الى ان يقول: فقم فانك جيش الهمم وأكفكف يد العنا بهندية امضى من البيض والسمر
بهندية في اصل اظهار اكلها الى الناس لا هندية اللون كالسمر (ص ٣٥ و ٣٦)

ثم تقفني الى باب في فصول عامة تناولت الكلام في كثير من غرائب الطبيعة كالحيوان المزهر والنبات المفترس والاشباه والنظائر ومنها تعلم ان « في الاطفال جزايا كثيرة تشبه مزايا الحيوان الاعجم . فالطفل يظهر فرجه بالوثب والظفر كالجحش والمهر ، ويندفع الى سرقة الجئان والبساتين ولو كانت اثمارها غير ناضجة كما تفعل العجاوات . ويضع ما يخصه من الامتعة في فراشه ولا سيما الاشياء الصغيرة كاللعب ونحوها ، واذا خاف عليها من طفل آخر وضعها في حجره وضم نفسه عليها ودفع الطفل الآخر يديه ولجأ الى الصراخ . واذا كانت اسنانه نامية لجأ اليها في الدفاع عن نفسه وهذا شأن القرد تماماً ، بل شأن اكثر الضواري » (ص ٦٦) الى غير ذلك من الفصول الممتعة الشيقة وعلى الاخص ذلك الفصل الذي عقدي « زعماء الحيوان » وقد تناول البحث في زعامة « الذئب » وزعامة « كلب الماء » من ص ٨٣ الى ٩٢ فان هذه الصفحات قلما قرأنا مثلها في كتب التاريخ الطبيعي على كثرة ما قرأناه منها ، لامن حيث الدقة في الوصف ولا من حيث السلاسة في الاسلوب او الترسل في البيان ويقتب ذلك باب آخر في « الحيوان الادراكه واجتماعه » ، ويبدأ بحوار بين عالم وفيلسوف

يبتصر فيه العالم لفكرة النشوء وينتصر فيه الفيلسوف لفكرة الخلق ، وفيه استعراض لجمل النظريات التي تنازع فيها الفريقان في نهاية القرن الماضي . وفي هذا الباب جملة من الفصول منها فصل في « لغة الكلاب والطيور » وآخر في « لغة القروذ » فصل فيها مذهب الاستاذ غرنر الاميركي الذي يدعي ان للقروذ لغة تفقاهم بها . وتخرج من هذا الباب بنتيجة مؤداها ان العقل والادراك في الانسان والحيوان واحد من حيث الاصل ، ولكنه يختلف في الدرجة فقط او كما يقول اصحاب المنطق متحد في الكيف مختلف في الكم

وينقل بك الى الكلام في حيوانات بحرية ونهرية ويبدأ بجزائر المرجان يحتوي على قصيدة في وصفه من ابلغ ما في الشعر العربي . وهي مترجمة في اسلوب لا سمة للترجمة عليه . ثم يثنى عليه بفصل من امتع ما قرأنا في كتب العربية عنوانه « الاركا والانسان » لا ييزه في قوة الوصف ومثاله التعبير وسلاسة الاسلوب الا القليل مما كتب أئمة المنثيين في عصر العربية الذهبي . واليك المثال: — « لطم النسيم وجه الماء فتغضض وتقلبت الاركا فيه مكسلاً لا يههما وطن ولا عطن وقلوها يسبح الى جانبها وهو يدنو منها حتى يمسا فيطمئن باله وكان لسان حاله يقول اتسعت البحار او ضاقت وكثرت الاعداء او قلت ، فن لاذ بأمه لا خوف عليه . وهي ارام ام في الوجود قلما يتعد عنه بل تفضمه اليها من حين الى حين بزغفتها او تدور حوله وتلمسه بشفتها حتى يطمئن باله ويسكن بلباله » وكل الفصل على هذا النمط من الجودة والسمو (ص ١٥٨) ثم يمضي في وصف حيوانات كثيرة منها فرس البحر الذي يقول فيه — « وقفنا بالامس في حديقة الحيوانات بالحيزة امام البركة الكبيرة التي يسبح فيها فرس البحر ورأينا حارسه فقال لنا اظنكم تريدون ان تزوه فقلنا نعم فقاداه واذا بالماء يموج ورأس خرج منه بمنخرين بارزين وعينين جاحظتين وجلد كلون الماء الاسن رمادي صقيل ، حتى اذا وصل الى حيث كان حارسه صعد الى البر فرأينا حيواناً ضخماً كالثور البدين ملؤه الجسم مكنز اللحم ، ففغر فاهاً كالهياوية ، ووقف ينتظر كالمسول اللجوج وهو ينفخ رأسه ذات اليمين وذات اليسار ، وقد رسمت البلادة على وجهه آياتها ، وضربت الذلة في عينه اطناها . فرمى الحارس في شدقه رؤوساً من البطاطس فالتهمها بأسرع من لمح البصر وفتح فاه ثانية يطلب غيرها فرمى له رؤوساً اخرى فاتبعها سابقتها وفغر فاه ثالثة ولما رأى ان سلته طلعت فارغة هذه المرة ادار رأسه وعاد ادراجه ولسان حاله يقول

لقد علمت وما التقير من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني

اسعى له فيعتيني تطلبه وان قعدت اتاني لا يعتيني

لا خير في طمع يدي الى طبع وغفة من قوام العيش تكفيني (ص ١٦٨)

ثم فصل في الحيتان قلما تقع على مثله في امتع كتب التاريخ الطبيعي وفيه وصف لأرقى اجناسها المعروفة مع ذكر الكثير من عاداتها واطوار حياتها . ثم الدلفين وهو من اغرب حيوانات

غرائب النباتات

غرائب الاوراق والازهار والثمار

قلنا يمر فصل الازهار وتمتد الثمار إلا وبوافيك اولادك يوماً بعد يوم بشمرة مزدوجة وبرتقالة في قلب برتقالة يسألونك تليل ذلك فلا تجد نفسك اعلم منهم به . وهذه الغرائب النباتية لا تقتصر على الثمار بل تتناول الاغصان والاوراق والازهار ولسكنها لم تخرج عن عاداتها المألوفة وستنتهي المتبعة إلا لتكشف لك القناع عما في تاريخها من الاسرار فهي كالنبي الذي تسكره خمرة الظفر فيكشف ما يكنه طبعه ويخفيه وقت الحذر

اما الاغصان فاكثرت ما يرى فيها من الغرائب نموها عريضة كالقندد ويسكن ذلك في الهليون ونحوه من النباتات التي تخرج اغصانها من الارض غضة خصية . ذكر الاستاذ هلسند انه رأى غصناً من الهليون عرضه نحو عشرة سنتيمترات وثخنه سنتيمتر واحدمع ان اغصان الهليون اسطوانية كما لا يخفى . وقد شاهدنا خرايع الازدرخت عريضة لا يقل عرضها عن اثني عشر سنتيمتراً ولا يزيد سمكها على سنتيمتر واحد وكان سطحها مفضللاً حسي كأنها اغصان كثيرة ملتصمة بعضها ببعض وثبت ذلك اخيراً بتفرع رأسها الى فروع كثيرة . وقد رأينا ذلك في اماكن مختلفة مما يدل على انه غير نادر ومن أغرب ما شاهدناه من هذا القبيل تفرع اغصان الصبر العادي (التين الشوكي) ولا سيما الاغصان التي تظهر من الارومة فانها تذهب كل مذهب حسي تكاد تماثل انواع الصبر المختلفة في اتخاذها الشكل الكروي والاسطواني والمسطح والمفروض . وقد تراكم الثمار فيها بعضها فوق بعض تراكماً غريباً . ومما هو شائع في الصبر ظهور الثمرة والنصن (القرط) محيط بها وهو يسمى في الشام جملاً ولهذا الجمال شكل واحد تقريباً فان النصن يكون كثري الشكل مسطحه والثمره بقرب رأسه مائلة الى جانبه الايمن او الايسر

ومنها تفرع اغصان النبات المعروف باسم عرف الديك (Celosia) من قتها حيث تظهر الازهار . فانها تماثل عرف الديك شكلاً ولوناً وقد تبلغ حداً فائقاً في اتساعها وتجمدها . نذكر اننا رأينا مرة رأس غصن كالروحة في اتساعه يبلغ عرضه من طرف الى طرف على محيطه الاعلى لا اقل من ثلاثين سنتيمتراً ولو بسطت غصونه لبلغت متراً في طولها وهي ملزوزة لزاً بديعاً . وقد تتدلى من هذا العرف قدح حمراء كما تتدلى من عرف الديك الرومي (الحبشي)

هذا من قبيل الاغصان أما الاوراق فيكثر خروجها عن القياس بالتحام ورتقين أو ثلاث ورقات معاً . وقد شاهدنا ذلك في اوراق الليمون والتفاح وغيرها . وفي ظهور وريقات اكثر

البخار ثم الاحياء المنيرة ، الى الحياة في قاع البحار . ويمتد بفصل في الرعاد او السمك الكهربائي ومنه تعرف ان في الطبيعة كثيراً من الاحياء البحرية تحتوي اجسامها على شحنات كهربائية اذا نبذتها كانت كافية لدق جرس او انازة مصباح كهربائي فترة من الزمان . أما الكلام في الاخطبوطيات والاسفنج فمن امتع ما تطوي عليه دقتنا هذا السفر العظيم

ويأتي بعد ذلك باب خص بوصف بعض الطيور كالك الحزين والبيغاء وطبائع الغربان التي تدهش اذا عرفت منها - « ان الذين ربوا الغراب وعلموه النطق يقولون ان جمعة حيله لا تنفذ ومهارته في تقليد اصوات الناس تفوق مهارة البيغاء . وهو يتعلم دوماً مما يراه ويسمعه ويمرن نفسه على ما يتعلمه حتى يتقنه ولا ينساه . وصوته مثل صوت الناس حتى لقد يلتبس به . روى بعضهم ان غراباً تعلم الجمل التي تقال في التعليم العسكري وكان يمشي مع الضابط صاحبه ويشاركه في تعليم الجنود او يكرر ما يقوله حرفاً حرفاً ، حتى كان الجنود يحسبون صوته صوت ضابطهم ويأتمرون به » . (ص ٢٣٣) ثم يأتي بعد ذلك وصف النسر والعقاب ، ومن طبائعها ان العقاب - « اذا صادت شيئاً لا تحمله على الفور الى مكانها ، بل تنقله من موضع الى موضع ولا تقعد الا على الاماكن المرتفعة . واذا صادت الارانب تبدأ بصيد الصغار ثم الكبار . وهي اشدا لجوارح حرارة وأكثرها حركة . ومن عجيب ما ألهته انها اذا اشتكت اكبادها أكلت اكباد الارانب والتعالب قتراً . وهي تأكل الحيات الا رؤوسها والطيور الا قلوبها ، ويدل على هذا قول امرئ القيس كان قلوب الطير رطباً وياساً لدى وكرها العناب والحشف البالي (ص ٢٤١)

ثم اوصافاً لطيور اخرى من اغرب ما في الطبيعة من ابناء الهواء

فاذا اتينا من باب الطيور واختمت بكلام في ريش الطيور قلما تقع على مثله في اوسع كتب التاريخ الطبيعي ، دخلت في عالم الجمل والنحل ، واذا علمت ان عالم الحشرات اعجب اقسام مملكة الحيوان من حيث الطبائع والافتنان في البناء والاكتناز ، عرفت الى اي احد يصل بك هذا الباب من علم باسرار الطبيعة الحية . ويختم الكتاب بباب فريد في الاسد والفيل

هذا بعض من الآثار التي خلفها استاذنا الكبير بين دفتي المقتطف ، مدرسة الثقافة الحديثة . وكلما تصفحت قسماً من هذا الكتاب وانا جالس في نفس المكان الذي كنت اجلس فيه للاستاذ الاكبر قبل ان يطويه التراب ويطفي نجمه الموت ، وبالقراب من مكتبته الذي كان يدبج عليه هذه الفصول وغيرها مما يسع صدر المقتطف الفسيح ، اذكر تلك الكلمة التي قالها العلامة « رينان » في ذكرى الفيلسوف الاكبر « سينوزا » عندما وقف تحت النافذة التي كانت يشرف منها الفيلسوف على احد ميادين امستردام قائلاً . « لعل الله كان اقرب الى هذه النافذة منه الى اي مكان في الارض » . اما الحجره التي كان يشغلها الدكتور صروف رحمه الله ، فكانت الى الله ، كما كانت نافذة سينوزا ، اقرب مكان في الارض -